مظاهر الرّحمة في شخصيّة الرّسول ﷺ

Aspect of mercy in personality of Prophet ﷺ

الدكتورعبد الحميد عبد القادر خرّوب*

ABSTRACT

Those who abused the Prophet ﷺ, and accused him of violence, slander and falsely, had never listened to the call of the mind. They should never ignore the one of the most important verses of the holy book revealed from the Creator, Allah Almighty, that Prophet Muhammad ﷺ has been sent to the mankind purely for offering mercy. How can they neglect the fact that the Prophet ﷺ himself said if he was a leader without mercy, people around him did not accompany him.

When we study the life of Prophet ﷺ, we observe that all factions of the society, whether they are slaves or independent, Muslims or non-Muslims, men or women, beloved friends or worst enemies; they were behaved not only with extreme justice, but with utmost mercy. So we find that it was a mercy in everything, in education, in advocacy and in legislation, in war and peace, in the family and society, and in all walks of life, etc.

In this article, aspect of mercy in the personality of holy Prophet Muhammad ﷺ has been discussed in detail. Opinions of the Orientalists are also presented in the article. Aspect of mercy was not only an ingredient of the personality of Prophet ﷺ, but He ﷺ also made mercy a part of his followers' personalities. So history witnesses that there was an elongated reign of peace in the world, whenever Muslim Rulers were in power.

Keywords: Mercy, Personality, Justice, Fields of life, Muslim Rulers

* أستاذ مساعد بكلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد

إنّ الذين أساؤوا للرّسول ﷺ،واتّهموه بالعنف بهتانا وزورا، لم يستمعوا لنداء العقل الذي طالما ادّعوا أنّهم أصحابه وأربابه،وتحلّلوا من الموضوعية التي يتغنّون بها في كلّ محفل،وانقادوا وراء أحقادهم الدّفينة،وتركوها تعمل عملها،وإلاّ فإنّ ما اتّصفت به شخصية الرّسول ﷺ من عفو لا نظير له،ورحمة لا سابقة لها،أوضح من الشمس في رابعة النّهار،وقد أقرّ بها العدوّ قبل الصّديق،ولا يجحدها إلاّ مكابر،فرحمته ﷺ لم تختزل عنده في الدّموع والآهات والحسرات،بل تحوّلت إلى حركة في الحياة تختزن في داخلها عمق المعنى الإنساني،فقد كانت رحمته ﷺ مراعية لأحوال النّاس أجمعين شاملة للقريب والبعيد،الصّديق والعدوّ،المؤمن والكافر،المسلمين واليهود والنّصارى،الإنسان والحيوان والأشياء، فصفة الرّحمة في شخصيته ﷺ استوعبت كلّ شيء،لأنّه كان رحمة في كلّ شيء في التربية والتعليم،في الدّعوة والتشريع،في الحرب والسّلم،في الأسرة والمجتمع،وفي ميادين الحياة كلّها،فرحمته لكلّ العوالم،كيف لا وقد قال فيه ربّه:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾.

مرّت البشرية بأحلك فتراتها التاريخية في القرنين الخامس والسادس من ميلاد المسيح عليه السّلام،إذ كان المعنى الإنساني في تلك الفترة أسفل سافلين،وقد كان هذا الوضع البشع،القدر المشترك بين أحوال النّاس في مختلف الأقطار.

فالأديان أفرغت من محتواها الحقيقي،ونضب معينها الرّوحي عن العطاء،واختلطت الحقائق بالخرافات والأساطير،وتوارى نور الفطرة السليمة،وتنوعت الآلهة التي لاتحصى،وصار اقتناء الوثن روح التدين،ومضى الإنسان في طريقه،يسير خبط عشواء،فسقط في ظلام الدّجل والشعوذة،ولم تتحرّك لإنقاذه تلك الأنظمة السّائدة،فقد كانت هي الأخرى رزية كبرى،قد استعملت بحكمها المتسلط،كلّ وسيلة أتيحت لها،لامتهان الإنسان الذي عاش في ظلّها بين سوط الجلاد ودرهم النخّاس،وشرّعت القوانين النّظام الطبقي،وتحكمت في المعنى الإنساني،توزعه كيفما تشاء على من تشاء،فطبقة مقدّسة يجري في عروقها دم الآلهة،وأخرى مدنسة ترعى

كما ترعى الهوام،وغاب صوت الإنسانية عن الحياة،وصار الناس في مجتمع الغاب،فالقوي يأكل الضعيف،والغني يستعبد الفقير،فيزداد القوي قوة،والغني غنى،ويزداد الضّعيف ضعفا،والفقير فقرا،وكثر الهرج،واندلعت حروب دامية،تغذيها الاختلافات السياسية والدينية،وأحيانا داحس و بسوس،وتستمر عقودا طويلة،يضيع فيها الحرث ويهلك النسل،ويتبختر الباطل.

ومأساة المرأة لاتبقي ولاتذر،فقد تجرّعت على اختلاف مواقعها،القسط الأوفر من كأس الإنسانية الممتهنة،وغدت سلعة رخيصة في سوق الشّهوات،تهيج لها الغرائز التي لم تعرف لها حدودا،وانتشرت حركات تبيح الشّهوات،والزواج بالمحرمات،بل إنّ بعض الأمم ترددت في الحكم على المرأة بالانتماء لبني الإنسان،وأخرى حرمتها حق الحياة،وأخمدت صوتها بالوأد.

وأمّا المعارف التي اكتسبتها البشرية في هذه الفترة،فقد علا عليها سوط الاستبداد،وصوت الخرافة،والروحانيات التي تخفف من شقاء الإنسان وعنائه،قد شابها الغلوّ،والذوق الجمالي أفسدته الشهوات،وألقت به في مستنقع آسن.

وسفينة الإنسانية المعذبة،قد أثقلها الجهل والعادات والتقاليد،ظلمات بعضها فوق بعض،حتى إذا فتّشت عن معنى الإنسان فيها، لم تجد منه إلا صورته.

تمخر وأمواج الضياع تتقاذفها يمينا وشمالا،وعواصف الفساد قد أحاطت بها من كلّ جهة،ولسان حالها يصرخ قائلا: هل من منقذ؟ هل من مخلص ؟ النجدة النجدة....

يقول " وينسون" في كتابه " الحركات كأساس للحضارة": وفي القرنين الخامس والسادس،كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى،لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت،ولم يك ثم مايعتد به مما يقوم مقامها،وكان يبدو إذ ذاك أنّ المدنية الكبرى التي قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والإنحلال،وإنّ البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى

ماكانت عليه من الهمجية،إذ القبائل تتحارب وتتناحر،ولاقانون ولانظام،أما النظم التي خلفتها المسيحية،فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام،وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة،امتد ظلها إلى العالم كله واقفة تترنح،وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب،وبين مظاهر هذا الفساد الشّامل ولد الرّجل الذي وحّد العالم جميعه"[1].

ولم تكن مكة الغراء التي احتضنت مولد الهادي،أحسن حالا من بقية البقاع،فقد نالها ما نال غيرها من الفساد،فالعدالة قد تلطخت بظلم الجهل والأعراف المجحفة والتقاليد البالية،والحرية تئنّ تحت وطأة الفوضى واللامبالاة،والشجاعة مزجت بالتهور والاعتداء،وفضيلة الحكمة والأمثال،قد خالطها الخصام والجدال،وحبّ النصرة قد شابه الطغيان،وشرف النسب قد غلبه الفخر والكبرياء،ومجالس الأنس تتخبط في الغواية.

إنّ معنى الإنسانية المنكسر،يستثير الرحمة والشفقة،وإنّ القلوب التي تتقطع عليه حزنا وأسفا،والزفرات التي ترتفع حسرة وألما،كلّ تلك الرحمات لن تجبر كسره،إنه بحاجة إلى رحمة منقذة،تنجده من التيه الذي هو فيه،وتسير به نحو الرشاد.

إنّ البشرية المتعبة،ماكان يزيل متاعبها،من يجهل حقيقتها،إنّها بحاجة إلى من يعرف مفتاح نفسها،فيفتح بابها ويتغلغل في أعماقها،ويقرأ خباياها،ويعيد ضبط أجهزتها،ويوجّهها الوجهة الصّحيحة.

ولقد أجاد العقّاد في التعبير عن حاجة البشرية لرسول ينقذها من الضّياع بقوله: أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهي علامة الكون وعلامة التاريخ .

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدّنيا في حاجة إلى رسالة .

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمّد هو صاحب تلك الرّسالة ...

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ"[٢].

ولاتحسبنّ رحمته ﷺ حالة إنسانية عابرة،أوحرارة عاطفة خاطفة،أو فيض دموع ساخنة،إنّ رحمته كانت حركة دائبة،كانت روحا لمنهج استوعب معنى الإنسان في أبعاده كلّها.

يقول المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه" العرب" مؤكّداً هذه الحقيقة: وحياة محمّد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله نفسه بألفاظ قليلة،بين بها سبب بعث النّبي (محمّد) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

وقد برهن بنفسه على أنّ لديه أعظم الرّحمات لكلّ ضعيف،ولكلّ محتاج إلى المساعدة،كان محمّد رحمة حقيقة لليتامى والفقراء وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء،وإنّي بلهفة وشوق لأن أصلّي عليه وعلى أتباعه"[٤].

ولقد أدرك هذه الحقيقة المستشرق روبرت اسمث فقال: لقد كان العرب قبل الإسلام على جانب من الغلظة والخشونة،ويعيشون عن طريق الغزو،و قد نزعت الرّحمة من صدورهم،وكانوا يعبدون الأصنام،ولكلّ قبيلة صنم حتى جمعوا في كعبتهم ثلاثمائة وستين صنما،وجاء محمّد في أواخر القرن السادس فدعاهم إلى الإسلام،وأعلن أنّه لا يجوز أن تتخذوا أصنامكم أربابا من دون الله،وكان محمّد على خلق عظيم فاتبعوه بعد أن لاقى منهم الأذى،حيث دعاهم إلى دينه القويم وعرفوا أنه دين لا يصادم الخير والإنسانية وأنه جاء لصلاح المجتمع"[٥].

في هذا الليل الذي طال ظلامه،واشتدّت وطأته على البشرية المحتضرة،وبعد شهرين من حادثة الفيل[٦] التي تحطّم فيها طغيان الجيوش العاتية،ونصر فيها المستضعفون،وفي فصل الرّبيع،يوم الإثنين ١٢ ربيع الأوّل سنة٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السّلام،ولد محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب في بيت هو أشرف بيوتات العرب،ومن نسب لايدانيه فيه نسب[٧].

وحين ينزع الإنسان عن ناظريه الحجاب،وينظر نظرة موضوعية عميقة في شخصية الرّسول ﷺ،بدءا من ميلاده إلى مماته،لن يتردّد لحظة واحدة في اعتبار هذه الشخصية فريدة ومتميزة ولا مثيل لها،ولايمكن أن تكون إلاّ رحمة مرسلة من ربّ العالمين.

ومظاهر الرّحمة في شخصية محمّد ﷺ لم تختزل في الدموع والآهات والحسرات،بل تحولت إلى حركة في الحياة،تختزن في داخلها عمق المعنى الإنساني،كيف لا وقد قال فيه عزّ من قائل: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾(٨).

ولذلك استحقّ هذا الرّسول الكريم أن يكون أعظم إنسان في تاريخ الإنسانية،وأن تقدّم له التحية الخالدة،من كلّ إنسان عاقل،درس التاريخ البشري بإنصاف،وهاهو الدكتور مايكل هارت في كتابه" المائة الأوائل"بعد بحث طويل وجهد كبير في أهمّ رجالات التاريخ،يعلن بإنصاف،سبب اختياره لمحمّد ﷺ على رأس المائة الأوائل فيقول: إن اختياري محمّداً ليكون الأول في قائمة أهمّ رجال التاريخ،ربما أدهش كثيراً من القرّاء إلى حدّ قد يثير بعض التساؤلات،ولكن في اعتقادي أنّ محمّداً ﷺ كان الرّجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.

لقد أسّس محمّد ﷺ ونشر أحد أعظم الأديان في العالم،وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام،ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته،لا يزال تأثيره قوياً عارماً"(٩).

إنّ ظاهرة الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ تزلزل شكوك المتردد في نبوته وتجتثها من أعماقه،وتغرس في نفسه شجرة اليقين،ولايقف في طريق إعلان هذه الحقيقة إلاّ الجحود الذي ابتليت به نفس الإنسان ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ (١٠).

ولقد شملت رحمته ﷺ القريب والبعيد،الصديق والعدو،المؤمن والكافر،المسلمين واليهود والنّصارى،الإنسان والحيوان والأشياء،فصفة الرّحمة في شخصيته ﷺ استوعبت كلّ شيء،فقد كان رحمة في كلّ شيء،ولعلّ التركيز على هذه الصّفة،في قراءة سيرته ﷺ،يجليها جلاء واضحا،وإن كانت أوضح من الشّمس في رابعة النّهار،وهذه بعض مظاهرها:

حرية الرقيق:

كان أبولهب عمّ الرّسول ﷺ من صناديد قريش،والعتاة الظالمين الذين وقفوا بعد ذلك في وجه الحق،واستكبروا استكبارا كبيرا،وكانت عنده مولاة تسمى ثويبة،فعندما بشرته بولادة الرّسول أراد أن يكافئها على هذه البشرى السارّة،فأعتقها من الرقّ،وتشرّفت بإرضاع الرّسول في أيّامه الأولى(١١)،ولك أن تتخيّل مدى الفرحة التي غمرت نفسها،والسعادة التي أحست بها،والحبّ الذي ملأ قلبها،لهذا المولود الذي تسبب في حريتها،إنّه لاشيء أجمل لنفس الإنسان،من أن يكون حرّا طليقا،يشعر بكرامته،ويتصرّف برغبته،ويختار بإرادته،ويعيش إنسانيته،وقد كان الرّسول ﷺ أفضل من يكافيء على المعروف،فكان بعد ذلك يسأل عنها وعن ابنها مسروح،ويرسل إليها من المدينة وهي بمكة،الهدايا ويصلها حتى توفيت(١٢).

رغد العيش

كان من عادة العرب الأشراف أن يلتمسوا لمواليدهم المرضعات،ويتخيروا لهم البوادي الجيدة،حتى يجمعوا بين سلامة الأبدان وفصاحة اللسان،وينشأوا نشأة قوية حسنة،وقد تشرفت حليمة السّعدية بإرضاع الرّسول ﷺ مع أنّها عزفت عنه بداية،وطلبت غير يتيم،رجاء يسر والديه،ولم تكن تعلم أي خير تركت،ولما أزف الرحيل،ورأت صويحباتها قد عدن وكلّ واحدة منهن تحتضن رضيعا،شقّ عليها أن تعود صفر اليدين،فرجعت إليه وأخذته،واستمع إليها وهي تتحدث عن الرّحمة التي

نزلت بها،مما جعلها تحرص عليه حرصا شديدا،وتلح على والدته بعد فصامه أن تتركه عندها،فتقول:

" ...ثُمّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلادِ بَنِي سَعْدٍ وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا،فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَنًا،فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ حَتّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ،فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَنًا،فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرّفُ مِنْ اللّهِ الزّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ وَكَانَ يَشِبّ شَبَابًا لا يَشِبّهُ الْغِلْمَانُ فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتّى كَانَ غُلَامًا جَفْرًا،قَالَتْ فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا،لِمَا كُنّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ،فَكَلّمْنَا أُمّهُ وَقُلْت لَهَا:لَوْ تَرَكْت بُنَيّ عِنْدِي حَتّى يَغْلُظَ فَإِنّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَاء مَكّةَ،قَالَتْ فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتّى رَدّتْهُ مَعَنَا"(١٣).

جلاء الكرب

حينما تحبس عيون السّماء،وتغيب الابتسامة عن وجه الأرض،تضيق حياة الإنسان،وتزداد الصّعوبات في طريقه،فيتحرّك بحثا عن الوسائل التي تذلّل له العقبات،وتوفّر له قسطا من العيش الرغيد،فإن أعياه الأمر،واشتدّ به الحال،وضاقت به السّبل،تلاشت أسجاف الظّلام الجاثم على نفسه،وأضاء نور الفطرة أعماقه،وارتفع صوته عاليا،مستغيثا بفاطر السّماء والأرض،فالق الحبّ والنّوى،موقنا بقدرته على نجدته وإنقاذه إذا يشاء،فيرفع يديه إليه خاشعا متضرّعا،راجيا الغوث،فإذا انكشفت غمّته،وزالت مصيبته،عاودته ظلمة النّفس،وغلبته شقوته،ومضى في طريق الضّلالة فرحا فخورا،كأنّ شيئا لم يكن.

وقد حدث مرّة انقطاع المطر،وأصاب النّاس قحط شديد،فهرع النّاس إلى عمّ الرّسول أبي طالب وهو سيّد من سادات قريش،لينظر فيما أصابهم،فتوجه

للكعبة البيت المقدس،وفي صحبته ابن أخيه اليتيم،وألصق ظهره بالكعبة،ورفع أصبعه ودعا،فسقوا،وانكشف الغمّ عن الناس،وعرفوا لهذا الغلام اليتيم المبارك،قدره،وأنزلوه منزلته،كيف لا،وقد نزلت عليهم الرّحمة حين توسلوا به،وإذا كان لكل أمّة ديوان تسجّل فيه أيّامها ومآثرها،وتحفظ فيه لعظمائها ذكراهم،فإنّ الشعر هو ديوان العرب.

يقول ابن عساكر:

"...قدمت مكة،وهم في قحط،فقالت قريش:ياأبا طالب أقحط الوادي،وأجدب العيال،فهلم فاستعد!فخرج أبو طالب،ومعه غلام،كأنه شمس دجن،تجلت عنه سحابة قثماء،حوله أغيلمة،فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة،ولاذ بإصبعه الغلام،وما في السماء قزعة،فأقبل السحاب من ههنا وههنا،وأغدق واغدودق،وانفجر الوادي،وأخصب النادي والبادي وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * * ثمال اليتامى عصمة للأرامل"(١٤).

حقن الدّماء

إنّ توفيق الله تعالى للرّسول في حلّ مشكلة وضع الحجر الأسود،كان رحمة بالنّاس،إذ اشتدّ نزاع القبائل فيه،كل قبيلة تريد أن تنال شرف إعادته إلى موضعه،فاتفقوا أخيرا على أن يحتكموا إلى أول رجل يدخل من الباب فدخل الرسول ﷺ من باب الصفا،فهتفوا جميعا قائلين: هذا محمد الأمين قد رضينا به حكما،وعرضوا عليه الأمر،فبسط ثوبا على الأرض،وأمرهم أن يضعوا فيه الحجر الأسود،ويأخذ كل ممثل لقبيلته من طرف الثوب،فتكون كلّ القبائل قد شاركت في شرف وضع الحجر في الركن اليماني،فلما وصلوا به إلى مكانه،استلمه النّبي ﷺ، ووضعه بيده،وحاز هو كل الشرف.

ففي هذه الحادثة،تجلت العناية الإلهية بالرّسول،حيث أكرمه الله تعالى بأن يكون حكما بينهم،إذ كان أول الداخلين،ووفّقه في حلّ مشكلة عويصة،كادت تزهق أرواحا كثيرة،بأسلوب سهل بسيط،رضيت به جميع القبائل.

أفلا يكون الإنسان الذي يصون الدماء،ويحفظ الأرواح،ويحلّ المشكلات،ويحكم بالعدل،ويأمنه الناس،رحمة للعالمين؟

يقول الدكتور أبو فارس: طريقة فضّ التّنازع كانت موفقة وعادلة،ورضي بها الجميع وحقنت دماء كثيرة وأوقفت حروبًا طاحنة، وكان من عدل حكمه أن رضيت به جميع القبائل,ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلة دون الأخرى، وهذا من توفيق الله لرسوله ﷺ وتسديده قبل البعثة،إنّ دخول رسول الله ﷺ من باب الصفا كان قدرًا من الله،لحل هذه الأزمة المستعصية،التي حُلت نفسيًّا قبل أن تحل على الواقع،فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمد ﷺ،فهو الأمين الذي لا يظلم وهو الأمين الذي لا يحابي ولا يفسد,وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء"(١٥).

وقد اعتبر " أتيين دينيه " أنّه لأوّل مرّة في تاريخ العرب،ظهرت فيه سياسة رشيدة،أرضت كبرياء زعماء القبائل العربية،وأنقذتهم من إسالة الدماء،فقال: وزال الخلاف بفضل بديهة محمد الحاضرة،فقد أرضاهم جميعا دون أن يفضل أحدهم على الآخر،ووفق لأوّل مرّة في تاريخ العرب،بين كبرياء رؤساء القبائل،فمنعهم من إسالة الدماء،واحتفظ لنفسه بجانب من شرف وضع الحجر الأسود،ولم ينازعه فيه منازع"(١٦).

رحمة التوحيد

تعدّ رسالة التوحيد التي جاء بها الرّسول ﷺ،أعظم رحمة للبشرية،حيث دعت الإنسان للتحرّر من ظلم وظلام الوثنية،التي أفسدت فطرته،وأعمت بصيرته،وعكّرت معيشته،وحجبت عنه نور الحق المبين،وقد كان ﷺ يدعو بنظرة عميقة،وعزيمة قوية،ونفس ثابتة،ولهجة صادقة،وبعد أن خالطت بشاشة الإسلام

قلب " أتيين دينيه" وأعلن إسلامه،تحدّث عن طبيعة هذه الرّسالة،والرّسول الداعية الذي يحبّ الخير للناس،ويسعى لإخراجهم من الظلمات إلى النّورفقال: وكان مظهر الدّين الجديد في بساطته وعظمته،وفي انسجامه مع ماتتطلع إليه الفطر السليمة،يجعلهم يشعرون بنفور شديد من عبادة الأصنام التي عاشوا عليها طيلة ماضيهم،ومع كل،فهذا الدين الجديد إنّما هو دين جدّهم إبراهيم الذي يحملون أثره،بطريقة لاشعورية،في قلوبهم وكان من السهل عليهم لذلك أن يدينوا به من جديد،وكانت لهجة الداعي إليه،تلك اللهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية،وكانت نظرته التي يشعّ منها الضياء،تخرجهم من الظلمات إلى النور،فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه"[١٧].

وحياته ﷺ كلّها دعوة للحق،ورحمة بالخلق،فقد كان في دعوته يخاطب عقل الإنسان،هذا العقل الذي هو من أكبر النعم التي أنعم الله بها على الإنسان،كان يدعوه إلى التأمّل والتفكير في نفسه وفي الكون،كان يدعوه إلى الحوار،ويعرض عليه دعوته واضحة وضوح الشمس،ليسأل الإنسان نفسه:كيف يصنع الناس أصناما بأيديهم ثم يسجدون لها،ويتمسحون بها ويرجون مباركتها في حلّهم وترحالهم ؟هل تغني تلك الحجارة عنهم شيئا ؟ هل تدفع عنهم ضرّا أو تجلب لهم نفعا ؟

ولكنّ عقل الإنسان غارق في سبات عميق،ممّا جعله يستلذّ المهزلة التي هو فيها،ويصنع من التقليد الأعمى والجهالة والتعصّب،سلاح مقاومته،حتى صار منظره الرّث،يستثيرالعاطفة والحنان،ويرقّ له قلب المهتدي،فيسعى لخلاصه،لقد طلب الرّسول الرّحيم من الإنسان أن يتحرر من هذه القيود التي صنعتها يداه،دعاه إلى الخروج من الظلام الذي يتخبّط فيه،دعاه إلى أن ينتفض من الركود الذي أثقل حركته،دعاه إلى أن يطرح الأغطية الثقيلة التي جعلته يغط في نوم عميق،دعاه إلى نهضة هو رائدها إلى فجر جديد.

ولقد خاض الإنسان في شتى ميادين المعرفة،واقتحم ساحة الغيبيات مجرّدا من وسائلها،فلم يجن إلاّ التعب،وظل مستمرا في تيهه،مدفوعا بحبه للمعرفة،واكتشاف المجهول،ولكنه تعثر وخلص إلى نظريات هي للخرافة والأساطير أقرب منها للعلم والحقيقة.

وظلّ العقل حائرا في مأساته،يتطلع إلى من يرحمه ويخلصه من شقاوته في الغيب والشهادة،ويوجهه الوجهة الصحيحة،يوجهه إلى الميدان الذي ينتج فيه ويبدع،فجاء ﷺ، وأرشد العقل إلى ميادين التفكير النافعة المجدية،وأنقذه من التيه والضياع الذي كان فيه،يقول توماس كاريل: ونظر محمّد من وراء أصنام العرب الكاذبة،ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم،نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصّادق وعينه المتقدة الجلية إلى لباب الأمر وصميمه فقال في نفسه: الوثنية باطل،وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لاتضرّ ولاتنفع،وهي منكر فضيع وكفر لو تعلمون،إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له،له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم،وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون"(١٨).

إنّ هذه الدعوة التي تكافح كي تستقر في الأعماق،ليست غريبة على فطرة الإنسان،إنّها تذكرة ورحمة،وصوتها الذي دوّى في الأرجاء،صوت قلب رحيم.

وما أجمل التشبيه الذي شبهه به السيّد محمّد علي حين قال: وهكذا ظهر الرّسول الذي كان " رحمة للعالمين" "وحرّر الإنسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد،وإنما كان الأنبياء السابقون أشبه بمصابيح إلهية كثيرة ذات ضياء يكفي هذه الحجرة أو تلك،ومن هنا أمست الحاجة إلى مصابيح مختلفة تطابق مختلف المناطق الجغرافية والقومية،لقد سفحت نورها حولها،فإذا بكل ما هو واقع ضمن نطاقها مشرق،متألق،ولكن ما إن بزغت الشّمس من رمال بلاد العرب حتى أمست

البشرية في غير حاجة إلى تلك المصابيح،ولكن ضياء الشّمس لا يمكن أن يحلّ محلّه أيما ضياء آخر،وهو كاف لإنارة العالم إلى يوم يبعثون"[١٩].

الرفق في كلّ شيء

كان الرّسول ﷺ رفيقا بالناس،وأكّد على الرّفق في كلّ الأمور،وفي كلّ الأحوال،لأنّ الرّفق سبب لكلّ خير،فهو ينمي الرحمة في قلب الإنسان،ويبعده عن القساوة والعنف والتشدّد،فأراد ﷺ،أن يتحلّى الإنسان بهذا الخلق العالي،الذي يجعل الإنسان يحب أخاه الإنسان،وخاصة من ولي شيئا من أمور النّاس،ولذلك شدّد على هذا الصنف،الذي يجعل من مكانته،وسيلة للعنف وإرهاق النّاس.

فالرّفق سبب لكلّ خير،لأنه يحصل به من الأغراض ويسهل من المطالب ومن الثواب،ما لا يحصل بغيره،وما لا يأتي من ضدّه[20]

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" من أُعطيَ حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير،ومن حُرِمَ حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير"[٢١].

وقال ﷺ:" إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلا زانه،ولا يُنْزع من شيء إلاّ شانه"[٢٢].

وقال أيضا: يا عائشة إنّ الله رفيق يُحب الرفق،ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العُنْف،وما لا يُعطي على ما سواه "[٢٣].

وهذه التوجيهات الكريمة،جعلها النّبي الرّحيم صورة حيّة متحركة،يراها النّاس صباح مساء،في كلّ أحواله،ومع النّاس أجمعين،فقد كان يترفق بمن يسلقه بلسانه،ويظهر له العداوة المضمرة في قلبه،ويتمنّى له الموت،وهو ﷺ في مقام رفيع،صاحب قوة،يأمر فيطاع،ولكنه كان أرحم الناس بالناس" فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ قَالَتْ عَائِشَةُ فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ

قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ"[٢٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي،فقام يبول في المسجد،فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَه مَهْ[٢٥]، قال: قال رسول الله ﷺ :لا تزرموه[٢٦] ،دعوه،فتركوه حتى بال،ثمّ إنّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إنّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول،ولا القذر،إنما هي لذكر الله،والصلاة وقراءة القرآن" قال:فأمر رجلا من القوم فجاء بِدَلْوٍ من ماءٍ فشنّه عليه[٢٧] وقال لأصحابه:"إنما بُعثتم مُيسِّرين،ولم تُبعثوا مُعسِّرين"[٢٨].

إنّه ليس فقط عفا عن الرجل،بل إنّه لم يعنّفه،وأكثر من ذلك أمر من ثارت ثائرتهم عليه،أن لايقاطعوه حتى ينتهي من قضاء حاجته،كي لايتضرّر،أو يزداد الضرر،ثم يطهروا المكان بالماء،وأقبل على الرّجل يعلّمه برفق ولين،يقول الأعرابي بعد أن فقه:" فقام النبيّ ﷺ إليّ بأبي وأمي فلم يسبّ،ولم يؤنّب،ولم يضرب"[٢٩].

حرصه على هداية النّاس

بعد أن أعرض المشركون عن الاستجابة للرّسول وخذلوه واضطهدوه،وتفنّنوا في إلحاق الأذى به وبأصحابه خرج من مكّة إلى الطّائف لعلّه يجد آذانا صاغية وقلوبا واعية،مشى مسافة كلم في حرّ الشّمس،وجلس إلى أشرافهم ودعاهم إلى الحقّ المبين،ولكنّهم أصرّوا على جهلهم،واستكبروا على دعوته،وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم،يسبّونه ويرمونه بالحجارة،ورفيق سفره زيد بن حارثة يتصدى للقوم من غير سلاح،ويقيه بجسمه ويدعوهم للكف دون جدوى،حتى أدموا قدميه الشريفتين،فلجأ إلى بستان في طريقه حزينا على القوم الذين كافؤوه على الخير الذي جاءهم به،بالحجارة والسخرية والاستهزاء،فأين يذهب بعد أن أخرجته مكة وطردته الطائف ؟ إنّه لجأ إلى ربّه متضرعا إليه

بالدعاء،فقال: :اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي،وَقِلّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ يَاأَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي،إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي،وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي،أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك،أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى،وَلاحَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلا بِك "(٣٠).

ومع كلّ مالحقه من أذى،فقد دعا لهم بالهداية،وبقي محبّا لهم الخير،يرجو لهم الحياة السعيدة،فما أرحمه من إنسان !وما أوسع الرحمة التي فاض بها قلبه!

في هذا الموقف الذي تنقبض فيه النّفس،وتقسو على غلاظ القلوب،وتتوعّد الجفاة المعتدين،نرى الرّسول الرّحيم،ينقش في جبين التاريخ المثل الأعلى في رقة القلب وحنانه،وسعة رحمته بالخلق،وحبّه الخير للنّاس أجمعين،لقد توجّه إلى ربّه يستلهم منه القوة والرشاد،ويدعوه بكلمات تذيب الحجارة وأشدّ منها،فيستجيب له ربّه،ويرسل لنصرته الأشدّاء الأقوياء،ويجعلهم رهن إشارته لينتقموا له من المسيئين إليه،ولكن الداعية الرحيم لايعرف الانتقام،ولئن كان جسمه يقطر بالدماء،فإنّ قلبه يسيل بالرحمات،إنّه عفوّ متسامح، يحزن حين يرى الجاهلين هلكى يتدحرجون في الهاوية،إنه جاء لإنقاذهم،جاء ليأخذ بأيديهم،فلن يخذلهم حتى لو ناصبوه العدواة،إنّه يرجو أن يأتي اليوم الذي تشرق فيه قلوبهم،ولذلك أبى أن يدعو عليهم بالهلاك،بل طلب لهم الهداية والمغفرة.

روى البخاري بسنده فقال:"عن عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا

بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"(٣١).

إنه أبى أن يتعامل بأسلوب الاستئصال،مع الذين رفضوا الإيمان به،ومنعوه من أن يقول كلمته،وصمّوا آذانهم في وجهه،ولم يفكّروا في محاورته،وتصدوا له بأنواع الأذى،ولقد كان هذا الأسلوب جاريا مع الأقوام السابقين كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وقوم صالح،،لما طغوا في الأرض وتجبّروا،وأكثروا فيها الفساد،استأصل الله شأفتهم.

قال تعالى:" فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"(٣٢).

ولكنّ الرسول الرحيم،استمع إلى مقترح ملك الجبال،ثمّ اختار الصّبر على ظلمهم،ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة،وجدالهم بالتي هي أحسن،شفقة ورحمة بهم.

فهل بعد هذا يقال إنّ دعوته انتشرت بالسّيف؟ هل كان السّيف في يد الدّاعية الرّحيم أم في أيدي المدعوين المستكبرين ؟وهل كان يشهر لنشر الدّعوة أم يشهر في وجهها ؟وهل الدّاعية الرحيم أخرج قريشا من ديارها،وصادر أموالها؟أم هي التي فعلت ذلك به وبأصحابه ؟

إنّ من يريد أن يلبس الدّاعية الرّحيم،ثوب القساوة،زاعما أنّه نشر دعوته بالسيف والعنف والإرهاب،فإنّا ندعوه إلى قراءة السّيرة النّبوية،قراءة

متأنيّة،وأن ينظر فيها بعمق وإنصاف،ويتجرّد من الأحكام المسبقة،وأن تكون الحقيقة مطلبه،فهل يجد ما يعضّد هذا الزعم أم مايفنّده؟

ولقد بيّن العقاد تهافت الذين يدّعون أن الإسلام انتشر بالسّيف والعنف والإرهاب،فقال في كتابه"عبقرية محمّد ": أيّ إرهاب وأيّ سيف؟ إنّ الرّجل حين يقاتل من حوله إنّما يقاتلهم بالمئات والألوف...وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدّين الجديد يتعرّضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحداً لسيوفهم،وكانوا يلقون عنتاً ولا يصيبون أحداً بعنت،وكانوا يخرجون من ديارهم لياذاً بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين،ولا يخرجون أحداً من داره.

فهم لم يسلموا على حدّ السّيف خوفاً من النّبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه،بل أسلموا على الرّغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين،ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى،ويبطلوا الإرهاب والوعيد،ولم يحملوه ليبدأوا أحداً بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان،فلم تكن حرب من الحروب النّبوية كلها حرب هجوم ولم تكن كلها إلاّ حروب دفاع وامتناع"(٣٣).

ولما استمرّوا في تكذيبهم وعنادهم واضطهادهم للنبي وأتباعه،وفي كل مرّة يطالبوه بمعجزة،استهزاء به،دعا عليهم،فأصيبوا بسنة قحط،أكلوا فيها الميتة،فهرعوا إليه،يقولون له: إنك تزعم أنّك بعثت رحمة،فادعو الله أن يرفع عنّا هذه المصيبة،فما كان من الداعية الرحيم،إلا أن دعا لهم الله،فسقوا،وقال لهم: إنّكم عائدون،روى مسلم بسنده "أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنْ الْجَهْدِ وَحَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ اللَّهَ لِمُضَرَ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا فَقَالَ لِمُضَرَ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ

قَالَ فَدَعَا اللَّهَ لَهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:" إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ"(٣٤).

قَالَ فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَةُ قَالَ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾" (٣٥)(٣٦).

قال: فأصابتهم سنة حتى حصت كلّ شئ،حتى أكلوا الجيف والميتة،وحتى أن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السّماء كهيئة الدخان من الجوع،ثم دعا فكشف الله عنهم،ثم قرأ عبدالله هذه الآية " إنّا كاشفوا العذاب قليلا إنّكم عائدون " قال فعادوا فكفروا فأخروا إلى يوم القيامة، أو قال فأخروا إلى يوم بدر،قال عبدالله: إن ذلك لو كان يوم القيامة كان لا يكشف عنهم " يوم نبطش البطشة الكبرى إنّا منتقمون " قال: يوم بدر"(٣٧).

وفي سيرة ابن كثير" لما رأى رسول الله ﷺ من النّاس إدبارا قال:" اللّهم سبع كسبع يوسف " فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام،فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يا محمّد إنّك تزعم أنّك بعثت رحمة وإنّ قومك قد هلكوا، فادع الله لهم،فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث،فأطبقت عليهم سبعا فشكا النّاس كثرة المطر،فقال:" اللّهم حوالينا ولا علينا " فانجذب السّحاب عن رأسه فسقى النّاس حولهم"(٣٨).

هذا غيض من فيض رحمته ﷺ، وللحديث بقية،وصلّى الله على محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

الهوامش والإحالات

١) زكريا هاشم زكريا . المستشرقون والإسلام ،لجنة التعريف بالإسلام ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،الكتاب العشرون ١٩٦٥م، ص: ٢٩٦

٢) عباس محمود العقاد . عبقرية محمد . ص: ٢٦

٣) سورة الأنبياء: ١٠٧

٤) جان ليك ، العرب ، ص: ٤٣

٥) روبرت اسمث ، أحوال العرب قبل الاسلام و بعده . ص: ١٧– ١٨

٦) السيرة النبوية . ابن هشام . عمر عبد السلام تدمري، دار الريان للتراث . القاهرة ١٩٨٧م، ص: ١/ ١٨٣

٧) السيرة النبوية، ابن هشام، ص: ١ / ١١ . ١٦

٨) سورة الأنبياء: ١٠٧

٩) مايكل هارت ، المائة الأوائل ص: ٢٩

١٠) سورة النمل: ١٤

١١) البخاري . الجامع الصحيح . .كتاب النكاح، باب "وأمهاتكم الّتي أرضعنكم" سورة النساء ٢٣. ، دار السلام . الرياض١٩٩٩م ، رقم الحديث :٥١٠١ ص٩١٢: " عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ أَوَتُحِبِّينَ ذَلِكِ فَقُلْتُ نَعَمْ لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ ذَلِكِ لَا يَحِلُّ لِي قُلْتُ فَإِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ قُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي إِنَّهَا لَابْنَةُ أَخِي مِنْ الرَّضَاعَةِ أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ فَلَا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ قَالَ عُرْوَةُ وثُوَيْبَةُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي لَهَبٍ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ قَالَ لَهُ مَاذَا لَقِيتَ قَالَ أَبُو لَهَبٍ لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ"قال ابن حجر: (وَثُوَيْبَة مَوْلَاة لِأَبِي لَهَب) قُلْت : ذَكَرَهَا اِبْن مَنْدَهْ فِي " الصَّحَابَة " وَقَالَ : أُخْتُلِفَ فِي إِسْلَامهَا وَقَالَ أَبُو نُعَيْم : لَا نَعْلَم أَحَدًا ذَكَرَ إِسْلَامهَا غَيْره ، وَالَّذِي فِي السِّيَر أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يُكْرِمهَا ، وَكَانَتْ تَدْخُل عَلَيْهِ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ خَدِيجَة ، وَكَانَ يُرْسِل إِلَيْهَا الصِّلَة مِنْ الْمَدِينَة ، إِلَى أَنْ كَانَ بَعْد فَتْح خَيْبَر مَاتَتْ وَمَاتَ اِبْنهَا مَسْرُوح .

١٢) قَوْله (وَكَانَ أَبُو لَهَب أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيّ ﷺ) ظَاهِره أَنَّ عِتْقه لَهَا كَانَ قَبْل إِرْضَاعهَا ، وَالَّذِي فِي السِّيَر يُخَالِفهُ ، وَهُوَ أَنَّ أَبَا لَهَب أَعْتَقَهَا قَبْل الْهِجْرَة وَذَلِكَ بَعْد الْإِرْضَاع بِدَهْرٍ طَوِيل وَحَكَى السُّهَيْلِيُّ أَيْضًا أَنَّ عِتْقهَا كَانَ قَبْل الْإِرْضَاع). فتح الباري لابن حجر،ص: ٦ / ٢٦٤، دار المعرفة بيروت ٢٠٠٥م وقال ابن كثير: "قالوا لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته فجوزي بذلك لذلك". البداية والنهاية لابن كثير ، المعرفة بيروت ٢٠٠١م ، ص: ٦٧٢/١

١٣) السيرة النبوية . ابن هشام، ت عمر عبد السلام تدمري ، دار الريان للتراث . القاهرة ١٩٨٧م، ص:١ / ١٨٩.

١٤) سبل الهدى والرشاد، ص: ١ / ٨، وروى البخاري في صحيحه بسنده فقال: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ ،وَقَالَ عُمَرُ بْنُ حَمْزَةَ حَدَّثَنَا سَالِمٌ عَنْ أَبِيهِ رُبَّمَا ذَكَرْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَسْقِي فَمَا يَنْزِلُ حَتَّى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ ،وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ – ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ ،وَهُوَ قَوْلُ أَبِي طَالِبٍ" صحيح البخاري ص ١٦٢ باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا . رقم (١٠٠٨ . ١٠٠٩)

١٥) عبد القادر أبو فارس . السيرة النبوية ص: ١٢٥، وانظر العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ،ص: ١ /١١٦

١٦) أتيين دينيه . محمد رسول الله ص: ١٠٠ ، ترجمة د / عبد الحليم محمود،ومحمد عبد الحليم محمود ، دار المعارف القاهرة. ١٩٧٩م، ص: ١٠٠

١٧) محمد رسول الله ص: ١١٧

١٨) الكتاب التذكاري للمؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنّة النبوية الشريفة ملف خاص عن النبي محمد ﷺ القاهرة . ١٩٨٥م، ص:٥٧٤

١٩) مولانا محمد علي . محمد رسول الله ص: ٢٨٠-٢٨٢.

٢٠) انظر النووي . شرح صحيح مسلم،ص: ١٤٥/١٦ . وانظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،ص:٤٤٩/١٠ . وتحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي،ص: ١٥٤/٦.

٢١) الترمذي . الجامع الصحيح . في كتاب البر والصلة . باب ما جاء في الرفق " وقال : حديث حسن صحيح" دار السلام . الرياض ١٩٩٩م ، . رقم ٢٠١٣،ص:٤٦٤

٢٢) مسلم،الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب،باب فضل الرفق،رقم ٦٦٠١، ص:

١١٣٣

٢٣) مسلم . الجامع الصحيح . كتاب البر والصلة والآداب . باب فضل الرفق . رقم ٦٦٠٢ . ص ١١٣٣.

٢٤) صحيح البخاري . كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله . رقم ٦٠٢٤ . ص: ١٠٥٣

٢٥) مه: كلمة زجر، وهو اسم مبني على السكون، معناه: اسكت. وقيل: أصلها: ما هذا؟ انظر: شرح النووي،ص: ١٩٣/٣.

٢٦) لا تزرموه: أي لا تقطعوا عليه بوله. والإزرام: القطع. انظر: المرجع السابق،ص: ١٩٠/٣.

٢٧) مسلم . الجامع الصحيح، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها،ص: ٢٣٦/١ . رقم ٢٨٥ . والبخاري مع الفتح، بمعناه مختصراً في كتاب الوضوء، باب ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد ٣٢٢/١، برقم ٢١٩، وروايات بول الأعرابي في البخاري مع الفتح في عدة مواضع ٢٢٣/١، ٤٤٩/١٠، ٥٢٥/١٠.

٢٨) البخاري . الجامع الصحيح . كتاب الأدب . باب الرفق في الأمر كله . رقم ٦٠٢٥ . ص ١٠٥٣ و أخرجه الترمذي في كتاب الطهارة . باب ما جاء في البول يصيب الأرض رقم ١٤٧ . ص: ٤١ وأخرجه أحمد في المسند بترتيب أحمد شاكر واللفظ لأحمد،ص: ٢٤٤/١٢ . رقم ٧٢٥٤ . وأخرجه أحمد أيضاً مطولاً،ص: ١٣٤/٢٠ برقم ١٠٥٤٠ . وأبو داود مع العون،ص: ٣٩/٢.

٢٩) الإمام أحمد . المسند بترتيب أحمد شاكر من رواية أبي هريرة ﷺ ١٣٤/٢٠ . رقم ١٠٥٤٠ . وابن ماجه ،ص:١٧٥/١ . رقم ٥٢٩، ٥٣٠

٣٠) السيرة النبوية . ابن هشام،ص: ٢ / ٦٧

٣١) البخاري . الجامع الصحيح . كتاب بدء الخلق . باب "إذا قال أحدكم آمين ..."رقم ٣٢٣١،ص ٥٣٩، . وانظر مسلم . الجامع الصحيح . كتاب الجهاد . باب مالقي النبي من أذى المشركين والمنافقين"رقم الحديث ٤٦٥٣، ص: ٨٠٠ .

٣٢) سورة العنكبوت: ٤٠

٣٣) عباس محمود العقاد . عبقرية محمّد . ص: ٣٥

٣٤) سورة الدخان: ١٥

٣٥) سورة الدخان: ١١

٣٦) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين . باب الدخان" ، رقم ٧٠٦٧، ص: ١٢١٩

٣٧) ابن كثير . السيرة النبوية، ص: ٢/٩٠

٣٨) ابن كثير، السيرة النبوية، ص: ٢/٩٠

٣٩) سورة الأنبياء : ١٠٧

****